تحديد الأدب

بقلم حليم متري

يستطيع هذا الجيل الصاخب بشتى المظاهر أن يلهم الاديب من المعاني والصور ومن الأفكار والآراء ما يؤهله لدرس معضلات الحياة. ويستطيع هذا الجيل أن يلهم الاديب من التعابير المستحدثة والاخيلة الرائعة ما ينتج به ، أدباً خالصاً ممتازاً ، يستطيع هذا الجيل ان يلهم الاديب هذا ويستطيع أن يلهمه اكثر من هذا ككل عهد من العهود أو جيل من الاجيال في تاريخ الحياة الانسانية. فقد لا يحسب الادب قوة ناقدة اذا لم يطرق هذا الكون بحثاً ودرساً. وليست الحياة قاصرة على العلم بحقائق الاشياء بل ليست الحياة متجهة دائماً الى النظر الفلسفي أو متجهة دائماً الى الهدف العلمي. فالحياة العقلية في الانسان بدأت بالدين وستنتهي حتماً بالعلم. وأقول ستنتهي بالعلم لأن العلم بعيد الغور لا يستطيع عالم في أي فرع من فروعه أو قسم من أقسامه ان يحدده ولا يستطيع ان يدل على نهايته. بل لقد استأثر العلم بكثير من الحقائق او ما يشبه الحقائق فلم يخرجها عن كونها « ظواهر اجتماعية » كغيرها من الظواهر العامة في الوجود. أليس يرى العلم في الفن أنهُ ظاهرة من ظواهر التاريخ؟

ثم أليس يرى العلم في الدين انهُ ظاهرة من ظواهر الاجتماع كاللغة يبحثها على الضوء الارضي الذي يبحث عليه نشوء الجماعة نفسها. ويعلل ذلك بأن الدين وما يشبه الدين واللغة وما يشبه اللغة انما درا وجودها كما درت الجماعة نفسها وجودها في الحياة . . . ! واذن فالعلم هو التحليل والتطور عماده البحث والاستقصاء بل ان وظيفة العلم التي يسعى لاثباتها وصف الظواهر وتحليلها الى عناصرها الاولى. فالحياة العقلية اذن لا تستطيع ان تنتهي الى العلم الا اذا مرت في مرحلة تطورها بالأدب والفلسفة. ولعل اتصال الادب بالفلسفة مما جعل له مكانة خاصة في تراث الثقافة العالمية. بل لعل اتصال الادب بالفلسفة مما جعل للحياة العقلية هذا الانتاج الفكري القوي الذي ينمو بتطور الحياة نفسها وينمو بما فيه من حيوية

أما الادب فهو الانتاج الفكري في قالب المنطق والخيال. وان كان التعبير عنهُ باللفظ المختار واعتماده على المادة والروح — اتضح هذا التعبير. ولا ينبغي للاديب أن ينحو نحواً خيالياً عامًّا فيكون تعبيره حسيًّا فرديًّا أو ينحو نحو المنطق فيكون تعبيره علميًّا تركيبيًّا ناتياً عن الروح الادبي. فطبيعة الادب اذن ان يمتزج مزجاً دقيقاً ليجمع بين هاتين الناحيتين وهذا المزج هو التصوير

الحقيقي للادب بل هكذا يجب أن تنشئ الادب وتتروّاه . فنشوء الادب كنشوء أي كائن حي يتخذ حياتهُ من طينته الاولى التي تحوي التراكيب والمعاني . فالتراكيب تهيء رسمه وقيمة وجوده المادي . والمعاني تهيء العقل ما يتضمنه من تمييز عبارة أو وصف خاطرة أو التبيان عن عاطفة . والادب اذن يستمد عنصريه من اللغة ومن العقل فاللغة لها نشوؤها الخاص ولسنا بصدد بحثه فرجع هذا الى علم اللغات . والعقل له مناحيه واستنتاجاته ومظاهر تفكيره العامة .

***

والادب فن من فنون الجمال . غايته تصوير ما في النفس الانسانية من معان وأوضاع وما في الاجتماع من أساليب ونظم . وما في الوجود من آثار قيمة لها مكانتها . وما في الحياة بوجه عام من اخلاق وطبائع ومن أسباب ونتائج . على أن الادب في العصر الحديث يشمل مناحي جديدة في الدراسات النفسية العميقة فيعرضها على انها طائفة شائقة من البحوث الخالدة التي تستحق التسجيل والتي يجب ان يعرض لها بكلّ ما فيه من أداة للبحث . . . وفي هذا الجو نشأت الدرامة والقصة التحليلية وأشباهها من الآثار الممتعة . والادب لكي ينتهي الى هذا كله يتخذ العلم والفلسفة سبيلاً لتوضيح هذه الموضوعات . بل يتخذ أداته الطبيعية لابدائها في أجزل اسلوب وأقوى معنى . وليس الادب حديثاً للفظ منمق أو عبارة موشاة انما الادب أسمى من أن يقتصر على هذه الألفاظ الجوفاء التي اتسم بها كتّاب العصر الماضي عند ما كانت «المقامة» وأشباه المقامة والهجاء والمديح في الشعر تطغو على هذا الفن الرائع . وحياة الادب في استيعاب شؤون الحياة نفسها فليس بدعاً ان يعرض الادب للاجتماع أو الاقتصاد أو التاريخ كما تحتكم للعلم أو كما تحتكم للفلسفة . فالادب مرآة الجيل الذي انطوى في الحياة بوجه عام . ولسنا بصدد حالات معينة أو طائفة من الآراء خاصة تدع الادب وقفاً على بحث دون آخر . واذا كان العلم لم يدع شيئاً ماديًّا أو روحيًّا الاّ وتناوله بحثاً واستقصاء ، فأحرى بالادب أن يصور المثل الأعلى لاتساع الامد العقلي وسبر غور الحقائق المعنوية في اطراء المعضلات الاجتماعية اذ انهُ من تحصيل الحاصل ان ينتهي الادب الى تقدير الالفاظ ودلالتها على المعاني . او المشتقات اللغوية فليس هذا موضوع الأدب . وليس هذا مجال البحث القائم على الاسلوب العلمي . ولكي نقدر هذا ينبغي ان نعلم ان هناك طبقة من رجال الادب تنتصر للاساليب القديمة التي محورها البهرجة والزينة . والتي تنفرد بالمديح حيناً وبالهجو حيناً او تفهم من الأدب انهُ أداة للكسب . ولعلَّ هؤلاء يصورون احوال الناس وطرائقهم في الحياة كما تحكم المادة وحدها . وشر الأدب ما استعمل في تصوير وجهة خاطئة في لباس من الصدق وان كان في هيكل من هيا كل البيان الرائق الجذاب . بل شر الأدب ما استعمل في الحياة لاكساب الشر معنى الخير وهو عنهُ ناءٍ . ولعلَّ في تاريخ الشعراء والكتّاب في عصور الادب المتباينة ما يقرر هذه النظرية . ولعلَّ في تاريخ الشعراء والكتّاب ما يعبر بأجلى بيان عن ابتذال الادب اذا ما استخدموه في مباذل جهودهم وجعلوه

سبيل حديثهم وعلاقتهم بالخلفاء والامراء واصحاب السلطة ... ان العصور التي ساد فيها هذا الأدب لا وجه فيها بتاتاً لنهضة ادبية جديرة بالتقدير . فليس تحقير النفس والإسهال في غير مستحق بأدب وان طغى فيه الاسلوب حتى الاعجاز . وليست الرغبة الكاذبة بمجدية خيراً على الحياة والواقع ، وان صورت بأطياف الطبيعة وكان الفن فيها حقيقة ملموسة . فادب المديح او الهجاء له أسلوب خاص فيه كثير من الإثم والمبالغة

بين التقليد والخيال

يجب ان نعلم ان هناك طبقة من الادباء تمجد هذا الروح القديم الذي سيطر على الحياة الادبية في العهدين الجاهلي والاسلامي . وقد انفرد هذا الروح بنزعة اللفظ المبهرج في مختلف المناسبات الادبية تحوته الرسائل الخاصة والعامة والاحاديث بالخطب والمديح والهجاء في الشعر والنثر والتفاسير والسير والتاريخ بوجه عام . فالكتابة بأسلوب معين متشابه في كل مناسبة تثبت معنى التقليد وتحصر فيه ميزتها ولعل التقليد في الادب العربي يلمس لمساً شديداً في هذه الفصول التي كان يكلف الأدباء واشباه الأدباء وضعها في سبيل الامراء والخلفاء من اصحاب القوة والسياسة فكان الأدب التقليدي ادب فئة خاصة لا تظفر فيه بعواطف العامة ولا تلمس فيه الروح الانساني الشعبي بل تستطيع ان تجد فيه هذه الالقاب ومظاهر الثراء واخبار المجالس التي يكثر فيها السمر والشراب والتي اقتصرت عليها حياة بعض الخلفاء والامراء والتوابع والخدم . ولعل هذا تلمسه في كثير من ادب الشعراء وأخبار الادباء . هذا الادب الذي ساد في العصر الوسيط . على ان العامة كان لها كلف شديد باستطلاع القصص التي كانت تحكي عن الابطال والعظماء . وكان لها ولع خاص بهذه الموضوعات التي تصور حياة الناس ووقائع الملوك والقادة . وكان الكتّاب الشعبيون يشعرون بهذا شعوراً قويًّا . فبدأوا بوضع الاقاصيص الخيالية التي لا تنطبق في كثير او قليل على الواقع والتي لا تخرج عن حد المبالغة في تصوير الوقائع والحوادث . وجد الكتّاب والشعراء اذن في هذا انصرافاً عن هذا الادب الخاص الذي لا يعدو اصحاب السياسة وينحصر في مرضاتهم

على أن هذا اللون من الأدب الخيالي كان نتيجة لازمة لعهد الأدب التقليدي وان كنا نرى في الأدبين التقليدي والخيالي صوراً مشوهة فيها كثير من التجني والتحريف عن الادب الواقعي . واني لألمس في اشباه « الف ليلة وليلة » هذا اللون الظاهر للأدب الخيالي . فالف ليلة وليلة من المصادر الدالة على النزعة الخيالية في الأدب . على ان هذا اللون الخيالي لم يترك غرضاً الا وعالجه في لفظ مسطح ودقة إداء وبلاغة تعبير

ولقد اعتمد الادب الاوربي على هذه النزعة الخيالية العربية التي اكسبته لوناً جديداً من الوان التأليف والتي كانت تمد العواطف الانسانية الشعبية ترى فيه راحة وإنبالاً تناجي غرائزها وتذكيرها

ولقد نشأ الادب «الرومانتيكي» على انقاض الحياة العربية . وانك لتلمس فيه روح الادب العربي في المعاني والآراء والنتائج .. ويعييك التحليل والبحث اذا ارجعته الى الادب اللاتيني .. لانه لا ينتمي اليه بحال

النزعة الاتحادية والادب القومي

الادب نوعان خاص وعام . فالادب الخاص ما يصور حياة جماعة او امة . والادب العام ما يصور حياة جيل ملخصاً في مجموع طائفة من الامم والشعوب . والادب العام هو الادب الذي يحدد التفكير الانساني والعقلية الاجتماعية في شتى مظاهرها . فالادب العربي له نزعته الخاصة في العصر الاموي وله نزعة اخرى تغايرها المتاثرة كلها في العصر العباسي على ما بين العصرين من مواضع للشبه ومناح للتمثيل . ولقد زخر الادب بلونيه الانشائي والوصفي في هذا العهد العباسي العظيم كما اتيح لهذين اللونين ان يظهرا ظهوراً واضحاً ايضاً في غضون الحياة العربية بالاندلس . فكان للادب من منثور الكلام ومنظومه روح خاص وطابع ممتاز في املاء الخواطر النفسية والمشاعر الاجتماعية . فكان الطابع الانساني لحياة هذه الطائفة الخاصة من الناس سبيلاً لانشاء الشاعر وسبيلاً لخلق الادب المصري المصور للحياة «الارستقراطية» التي سادت جو الامراء والخلفاء . كما تناول الادب الوصفي حياة هذا الادب الانشائي تناولاً عاماً يحلل ما فيه من قوة وضعف ومن خيال وحقيقة . وبخلق هذا الادب الوصفي سادت الحياة الاجتماعية ظاهرة النقد في مناحيها المختلفة . ولقد نشأ الادب العام بنشوء العقلية الشرقية متمثلة في الجنسين السامي والآري . ولعلك تجد هذا واضحاً في ادب القدماء المصريين . فهذه الناحية من حياتهم العقلية تجدها في قصص البردي والاقاصيص الخيالية التي اخذت تنمو في صورهم الذهبية وقد زعمها الكهان والملوك والزعماء . والادب الآري له نزعة خاصة من وجهة الخيال وفيه اثر الروح الشاعرة التي لا تحيي في جو التفكير المادي . والادب الآري يحوي فيما يحوي الادبين الهندي والفارسي والادب الهندي ادب الحكمة العالية والفلسفات الدينية والتصوف وله في الجوهر منزلة خاصة عند مؤرخي الآداب العامة . والادب الفارسي له تاريخ عظيم في سجل الآداب الشرقية وبه طائفة من صفوة الكتاب والشعراء المنتجين ويكفي ان نذكر على سبيل المثل منهم الشاعر العظيم الفردوسي صاحب الشاهنامة

والادب الذي يعبر عن رأي خاص لكاتب من الكتاب او جماعة من الجماعات هو الذي يدعو الى النزعة الاتحادية وأما الادب القومي فهو ادب خاص بأمة لا تستطيع ان ترده الى غيرها . فالادب العربي أدب قومي لا تستطيع ان ترده بحال من الاحوال الى الاغريق او اليونان وانما الادب الانجليزي ليس ادباً قومياً في نشأته لانه يرد الى الادبين اللاتيني واليوناني . على ان الادب العالي بصفة عامة ما سما الى المثل العليا الجديرة بالتسجيل والخلود . والمثل الاعلى في الادب يمثل النظرة الفنية له . فقد

تكون هذه النظرة خاصة بالحقيقة او بالجمال او بالدين أو بالطبيعة . نعم النظرة الفنية لا النظرة العلمية او النظرة الطبيعية او النظرة الفلسفية . فالنظرة الفنية نظرة المزاج ونظرة النفس وطبيعة الخلق واكمال الثقافة . واما ما عداها فنظرات فيها هذا اللون من الادراك العقلي الخاص بالنفس وكنه الاشياء او هذه الفلسفة التركيبية التي عبر عنها بادراك الحكيم الاجتماعي العالمي « سبنسر »

على ان نظرة الاديب في الحياة تحدد ادبه او تحدد عقليته الاجتماعية في الحياة والوجود وهذا ما يعبر عنهُ بمواهب الاديب وطابع أدبه أو ما ندعوهُ « رسالة الأديب ». فإبسن كانت له رسالة في حياته وإن عرف عنهُ طابع «المومسة» وشو يمثله من الوجهة الاجتماعية في هذا العصر وولز له رسالة « العالمية » « وأناتول فرانس » له رسالة « الجنسية والنوع »

وعالمية الادب تكوّن عظمة الأنتاج العقلي لأمة أو أمم ولشعب أو شعوب على ان الأدب الذي يمثل العالمية من فجر التاريخ هو الأدب الاغريقي الذي يدعو الى كثير من التأمل والدرس والذي يصور في مجموعه أرقى نزعات الآداب واقواها. فالى اليوم يُعد غذاء طائفة كبيرة من اعلام الكتّاب وأئمتهم . بل ان طابع القوة لأدب هذا العصر يستقي خصائصه ومميزاته من عناصر الأدب الاغريقي

حرية الادب

هي روح البحث العلمي الذي يجعل من الادب فنّاً قائماً بنفسه فيه عناصر الاستقلال بتحدث عن الشعور والحس بل هذه الحرية ما ينبغي ان نتناول فيها الأدب كما نتناول ظواهر الحياة كلها نتناوله كما نتناول فنون الجمال وكما يتناول العالم الرياضي أو الطبيعي الموضوعات العلمية بالبحث والتحليل. يجب ان تُخضع الأدب للحياة لا أن تخضع الحياة للأدب . فالجوهر ان تترك هذا المعتقد البالي الذي صور الأدب في هيكل القداسة والالوهية . والذي لم يجرؤ اصحاب الأدب القديم ان يبحثوه على انهُ شيء يستحق البحث . ان هذه الحرية تبيح للأديب حظّاً وافراً من قوة البحث بل ان هذه الحرية التي تسود جو الأدب هي الفضيلة العلمية التي يستطيع الأدب ان يفخر بها والتي تُعد دُرة الفكر في جبين الثقافة الحديثة

بين الادب والدين

الحياة كفكرة . والحياة كمذهب من المذاهب . والحياة كما افهمها انا لا كما تفهمها انت . والحياة كحوار متصل بين اصحاب الأدب واصحاب العلم أو بين اصحاب الأدب واصحاب الدين جعلت العقول تتحفز للوصول الى معنى فيه شيء من الاستقرار وفيه شيء من الاقتناع . على ان الأدب الذي عاصر الدين من يوم بعثه كان ولم يزل عنصراً لازماً لنشره وكان ولم يزل سبباً لهذا

الضرام المستعر الذي يقوم بين اصحاب الأدب والفكر الحر وبين اصحاب الدين . نشاعر المعرة لا تستقيم آراؤه واصحاب الدين وقد كان الغزالي متهماً بالالحاد وان مات وهو حجة الاسلام وقد يكون هذا سبباً لتعريض اصحاب الأدب برسالة العقيدة أو المذهب الديني ولقد كانت كتابات روسو وفولتير وريتان نقداً عنيفاً للمذاهب والمعتقدات بل أن « جحيم دانتي » أروع صورة من صور الأدب المناهض للدين . مصدر هذا كله هذه الثورة التي طالما خبا أوارها في صدور الادباء المفكرين الذين يجعلون من اقلامهم سبيلاً لبعث الأدب الحي الذي يعبر عن مكنونات النفس الروحية وكان الادباء في اوربا في خفية هذا الصراع يسيرون على نمط زعيمهم الأكبر « ديكارت » عندما نشر كتابه « عن الاسلوب » واصبح من حق المفكرين ان يقيموا الحجج أمام اصحاب الدين ممن استولوا على سلطة العلم والفن والثقافة في وقت واحد . وقد قرر الأدب حقاً يرم اتيح للدولة ان تنفصل عن الكنيسة

بين الادب والسياسة

العلاقة بين السياسة والأدب قائمة على ممر العصور . لا سبيل الى قطعها . فقد تطغى السياسة على الادب كما تطغى على العلم أو الفلسفة . فالتاريخ يحدثنا عن هذا كله والتاريخ يحدثنا مثلاً عن فوز الأدب في فترات الخمود السياسي . والتاريخ يحدثنا ايضاً عن ازدهار الأدب في إبان النهضات السياسية . نعم قد تدعو السياسة الى نهوض الأدب أو الى اهماله وقد تكون السياسة باعثاً قوياً على نشاطه وذيوعه ولكن الادب في الحالين لا يكون صالحاً للتعبير عن المثل الأعلى الذي من اجله وجد . فالأدب قد يقرر هذه الحالات كلها وقد يعرض لها في شيء من التحليل والتفصيل

على ان هذه الحالات استحقت التسجيل والتقرير فهي صورة من صور الوصف المحدود بالزمان والمكان أو هي صورة نقدية لعصر من العصور ادعى للاثبات . وان كان الفن فيها مفقوداً أو شبيهاً بالمفقود

نعم قد تعتور الأدب فترات ركود أو خمود ويكون سببها هذه المحن السياسية وهذه الدوافع الخفية التي تحوط الجو الأدبي . ولكن الثورات السياسة التي تعرض للحياة الاجتماعية كثيراً ما تنهض بالأدب فيبرز في حلته الرائعة ومظهره الاعلى . وقد نرى ابلغ دليل نهضة الأدب الفرنسي الثائر عقب نهوض الثورة الفرنسية الكبرى متمشياً مع النهوض الاجتماعي الفكري في كل مظاهره وكذلك نهضة الأدب الانجليزي في اواسط القرن التاسع عشر في اعقاب عهد « البعثات » وبزوغ فجره في العصر الفكتوري المجيد